## سنن الله تعالى في الخلق

**ضرورة البحث :**

كنت جالساً مع مجموعة من اخوتي في البيت الحوراني نتحدث عن بعض الواقع السياسية واثارها في حياتنا فقال لي صديقي بأن الله مع القوي (بغض النظر عن الايمان) وقال اخ اخر بأن الحياة للأقوياء والضعفاء ليس لهم نصيب وأضاف اخر بأننا يجب أن نتخذ مواقف ثورية تجاه المخالفين لنا حتى تنتصر الثورة ، وكثرت وجهات النظر بين الجميع في هذه الجلسة فقررت أن ابحث عن القوانين أو السنن الثابتة التي الزمنا الله بها واقام عليها الكون، فكانت هذه المقالة التي ستغني حواراتنا المستقبلية وستبني عند الجميع نسق ثقافي موحد يساعدنا على معرفة الواقع وحتمية الحلول ونتائج اعمالنا بمعرفة السنن والقوانين التي شرعها الله ولن تتغير أو تتبدل .

ارجو من الله أن يساعدني في توضيح الأفكار وسردها بالطريقة المناسبة مع الشكر لأهلي في البيت الحوراني بشكل عام ولإخوتي الذين كانوا بالجلسة، والله والموفق.

**مقدمات في السنن الإلهية**

"السنن الإلهية"، موضوع متعلق بالنفس والكون، والتفكر والاعتبار، والله ﷻ له في هذا الكون وفي البشر قوانين، وقد شاء الله ﷻ أن يجري سنناً جارية، وتكون للمسلمين قوانين يعرفون بها أفعال الله ﷻ في خلقه، حتى إذا انتصر أجدادهم لا يأتي الأحفاد، فيقولون: كانت تلك خارقة؟ وإنما نُصر الأولون بسنة من سنن الله ﷻ، فإذا تكررت السنة جاءت النتائج وفقها، وإذا توافرت الشروط وقعت النتائج.

كنت دائماً اتسأل هل هناك قوانين ثابته لا يمكن أن تتغير .. وقواعد متأصلة في الحياة البشرية تسري في كل وقت وزمان . وبعد دراسة القرآن الكريم مررنا بآيات تتحدث عن شيء ثابت غير متغير مع تغير الانسان ، وثابت من حركة الاكوان وتطور الزمان فكانت سنن الله تعالى . ما هذه السنن وما أهميتها للإنسان حتى يعبد الله بالطريقة المثلى التي يحبها الله ؟

**(ابن كثير) قال: في شرح قول الله ﷻ** ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ الأحزاب: ٦٢

**هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا ولم يرجعوا عما هم فيه ، فيسلط الله ﷻ اهل الايمان عليهم ويقهرونهم، ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ) أي : وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير .**

أما في **تفسير السعدي** : { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ } أن من تمادى في العصيان، وتجرأ على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة. { وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } أي تغييرًا، بل سنته تعالى وعادته، جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

وفي **تفسير القرطبي** جاء: سن الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل . ولن تجد لسنة الله تبديلا ، حكاه النقاش . والمهدوي قال : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم ، وقد مضى هذا في ( آل عمران ) وغيرها .

وفي **تفسير الطبري** : يقول تعالى ذكره: ( سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ) هؤلاء المنافقين الذين في مدينة رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم ، هؤلاء المنافقين، إذا هم أظهروا نفاقهم أن يقتلهم تقتيلا ويلعنهم لعنًا كثيرًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله ( سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ...) الآية، يقول: هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق، وقوله (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييرًا، فأيقن أنه غير مغير في هؤلاء المنافقين سنته (الطبري).

## تعريف السنن الإلهية:

وما نقصده في "السنن الإلهية" تعريفه: سنة الله –تعالى–: "**طريقة حكمته**" كما قال الراغب –رحمه الله– [انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 415].

**وذكر شيخ الإسلام** –رحمه الله تعالى–: أن السنة، هي: "**الْعَادَةُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ أَنْ يَفْعَلَ فِي الثَّانِي مِثْلَ مَا فَعَلَ بِنَظِيرِهِ الْأَوَّلِ**" [مجموع الفتاوى: 20/13].

وهى تختلف عن المعجزة التي عرفها الفقهاء المسلمون أنها "**خارق للعادة**"، وهذه الكلمة "العادة" يراد منها الإشارة إلى سنن الكون العظيم أي قوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل. إلا إذا ارد الله ﷻ ذلك فتتوقف آلية عمل هذه القوانين.

إنّ الحديث عن معجزات أو كرامات للبشر ومنهم الأنبياء ينتفي مع معنى الآية الكريمة "**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا**"، أي أن قوانين الله لا تتغير ولا تتبدل بتبدل الظروف أو بسبب مخلوقٍ مُعيّن إلا إذا أراد الله ذلك، ورُبّما يقول السائل: "ألا ينتفي هذا السرد مع القصص التي رواها القرآن عن وجود معجزات للأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى "عليهم السلام ؟!

أنّ الرسالات السماوية هي دعواتٌ إصلاحية لثني البشر عن الشرك بالله عز وجل بالدرجة الأولى، فنوحٌ لم يُبعث لبناء السفينة وإنما لثني قومه عن التعبد لبشر وأصنام ، تلك الأصنام التي كانت سبب في ركونهم

إلى القعود عن القيام بالرسالة العظيمة للوجود وهي عبادة الله وعمارة الأرض، والاستمتاع بها، وذلك لا يكون إلا من خلال السنن التي أوجدها الله فيها.

والنبي إبراهيم وقصة الذبح، يجب أن نفهمها من خلال إبطال عادة ذبح الأبناء التي كانت موجودة قبل الرسالة الإبراهيمية، فقام إبراهيم بوحي من ربه بنسخ هذه العادة وإبدالها بعادة ذبح الحيوانات عوضا عن ذلك، ونقول هذا لعدة اعتبارات أهمها:

-أن إيمان إبراهيم لم يكن يحتاج لتأكيد إذ أنه نبي موحى إليه.

-أن الحادثة يمكن أن تفسر على أنها رؤيا، "**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ،... وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**"، فكانت حادثة الذبح وحياً ، وجرت أحداثه بين النبي وابنه، وكانت النتيجة هي إبطال عادة ذبح الأبناء والاستعاضة عن ذلك بذبح الدواب ( الاضحية)!

**ونستطيع القول بعد مراجعة للأفكار السابقة أنه يُراد بسُنن الله -عزّ وجلّ- في الكون القوانين التي تحكم الكون، وحياة الناس قدراً بمشيئة الله، وتجري باطّراد وثبات وعموم في حياة البشر، فلله ﷻ سنن في الأفراد، وسنن في الأمم، وسنن في الحياة وغير ذلك، وهذه السنن لا تتبدّل ولا تتأخّر، وتأتي مجتمعة فيخضع البشر لها في حياتهم، وسلوكهم، وتصرفاتهم، وبناءً على هذه السنن تترتّب النتائج في الكون، من نصرٍ، أو هزيمةٍ، أو قوةٍ، أو ضعفٍ، أو عزّةٍ، أو ذلّ، أو غير ذلك، وفي هذه السنن:**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ الفتح: ٢٣

## خصائص سنن الله في الكون

### خاصيّة الثبات؛

والقصد أنّها غير قابلة للتغيّر أو التبدّل، وتعمل مجتمعة ولا تتخلف أو تتبدل، يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، ويترتب على ذلك نتائج كالنصر أو الهزيمة، والسعادة أو الشقاوة، والرقي أو التخلف، والقوة أو الضعف، وفق مقادير ثابتة لا تتعرض للتبديل:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ فاطر: ٤٣

**قال السعدي رحمه الله: فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.**

فالله ﷻ أودع هذه السنن في الكون، فهي تنظّم حركة الكون كلّه، وحياة الناس، وتتحكّم في الحضارات، فتوضح عوامل النهضة، وعوامل السقوط لكلٍّ منها، فالحياة لا تجري عبثاً دون أن تحكمها ضوابط ومعايير، وهذا ما يقرّره القرآن حينما يذكّر الناس بسنن الله –تعالى– في الكون والحياة، فهو سبحانه الذي شرعها وسنها، كلف بها الإنسان، وربط بها الجزاء، وبحسب الالتزام يكون الاستخلاف، وبحسب المخالفة يكون العذاب، والله أضافها لنفسه، فهي قدر سابق، لا يقف شيء في وجهه، مقدر بحكمة ووزن.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب: ٣٨.

## الثانية العموم والشمول:

وهي تعمّ كلّ البشر وكلّ الخلائق على حدٍّ سواء، أنها تشمل جميع من وجبت في حقهم هذه السنة دون استثناء ودون تمييز، لا يملك إنسان الخروج عنها حتى أنبياء الله،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ النساء: ١٢٣

**قال ابن كثير رحمه الله: أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني ؟ بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام . وهذا عام في جميع الأمم السابقة وبما فيها أمة محمد صلى الله عليه سلم.**.. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ الزلزلة: ٨

فقانون وسنّة النصر له معايير وضوابط لا تجامل أحداً، بل تنطبق على الجميع بذات المستوى، وإذا تنبّه الإنسان لِما في سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وصحابته رضي الله عنهم، من قصصٍ وعِبرٍ لوجد هذه السنن حاضرةً فيها، فقد كانوا إذا التزموا بقوانين النصر التي شاءها الله –عزّ وجلّ– انتصروا، وقهروا عدوّهم، أمّا إذا خالفوها بعصيان رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– هُزموا وتراجعوا، رغم أنّ فيهم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والسنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات، مرتبطة بالكسب البشري، غير السنن التي في الكون –كما ذكرنا– في النجوم والكواكب –مثلاً–.

ولذلك ما ذكر الله أمة دمرها أو عاقبها إلا ذكر بجانب العقوبة والتدمير جريمتها وذنبها، فأخبر عن جريمة قوم نوح، وجريمة قوم صالح، وجريمة قوم هود، وجريمة قوم فرعون، قوم موسى، وهكذا..

فالله ﷻ يذكر السبب الذي بناءً عليه نزلت، أو صارت، أو مضت، سنته في المؤمنين أو الكافرين:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ غافر: ٢١

فالعقوبة، وهي سنة إلهية، مرتبطة بالكسب البشري: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم: ٤١

**الثالثة الاطّراد؛**

ويُعنى بها تكرار هذه السنن وظهورها في أي ظرف وُجدت فيه مقوّمات ظهورها التي أرادها الله من زمانٍ ومكانٍ وأشخاصٍ وأفكارٍ،: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ آل عمران: ١٣٧

**قال صاحب أضواء البيان رحمه الله : أي قد كان من قبلكم أمم أمثالكم، فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة التكذيب، والحكم الهلاك.،**

وبذلك يكون اطّراد سنن الله ﷻ حُجّة على جميع الناس، المؤمن والكافر منهم، ويكون في ذلك ردّ على الذين يحاولون إثارة الشبهات حول نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، بقولهم إنّه لو كان نبيّاً مُرسلاً من عند الله فعلاً لما نال منه الكفّار في بعض المواقف والغزوات، كما حصل في غزوة أحد حين شُجّ رأسه وكُسر سنّه، فيقال لهم حينها أنّ سنّة الله في النصر والهزيمة مطّردة، فمتى ما توفّرت ظروف وقوعها وقعت، فهي حاكمة على رسل الله وأنبيائه كما هي حاكمة على جميع خلقه.

**سنّة التدافع،**

**فقد جعل الله الحياة صراعاً دائماً بين الحق والباطل، ونزاعاً بين الأخيار والأشرار، ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض كما** قَالَ تَعَالَىٰ:﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا

يَشَآءُ ۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ البقرة: ٢٥١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ الحج: ٤٠

**قال ابن كثير: أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور أناس عن غيرهم.**

والمُراد بها أنّ الله ﷻ لا يُبقي الناس على حالهم أبداً، ولا يترك الدنيا كما هي، بل يدفع الأحوال ببعضها، ويدفع الناس ببعضهم البعض، فيدفع أهل الشرك بأهل التوحيد، ويدفع الباطل بالحقّ، ويدفع العاصين لله بالطائعين له، فيظلّ بذلك الصراع بين الحقّ والباطل قائماً مستمراً، فلن يأتي يوم على الأرض وليس فيها صراع بين الحقّ والباطل، ولولا هذه السنّة وهذا القانون الإلهي لبقي الظالم على ظلمه، ولدامت له سطوته وفساده، ولكنّ مشيئة الله تقتضي التغيير المستمر.

## الخامسة الإصلاح؛

لا يهلك القوم إن كان فيهم مصلحون، ومن أجل الإصلاح بعث الله رسله وأرسل أنبياءه، حتى إنّ رسول الله شعيب –عليه السلام– قال ذلك لقومه، كما أخبر القرآن: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ ۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ هود: ٨٨

فالرّسل كانوا يبدأون دوماً بإصلاح المنكر الأكبر وهو الشرك بالله، ثمّ يتدرجّون في باقي المنكرات المتفشية في الأمم التي أُرسلوا إليها، فربما أصلحوا المنكرات الاقتصادية، كالغشّ في البيع، والتطفيف في الميزان، وربما أصلحوا المنكرات الاجتماعية كما كان من قوم لوط من إتيان الذكور بدل الإناث، وباستمرار وجود مصلحين في الأمم والأقوام فإن سنّة الله –عزّ وجلّ– تقتضي عدم إهلاكهم، وفي بيان هذه السنّة قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ هود: ١١٧

**التغيير** :( الإيجابي والسلبي ):

قَالَ تَعَالَى:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١ ﴾

الرعد: ١١

وتفيد سنّة التغيير أنّ الله تعالى- لا يغيّر حال قومٍ من الراحة والرضا، إلى حال المشقّة والضنك أو العكس، إلّا بتغيير القوم لِما في قلوبهم، فإذا غيّروا ما في قلوبهم نحو طاعة الله تعالى، وامتثال أوامره، والعمل بما أراد، غيّر الله -عزّ وجلّ- حالهم إلى أفضل حالٍ ممكن، وأمّا إذا فعلوا عكس ذلك فعصوا اللهﷻ ولم يلتزموا أوامره فإنّه يغيّر حالهم إلى أسوء حال

كما قَالَ تَعَالَى:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ الأنفال٥٣

أي أنَّ الله لا يزيل نعمته عن قوم ولا يسلبهم إياها، إلا إذا بدلوا أحوالهم الجميلة بأحوال سيئة، وهذه من سنن الله الاجتماعية. و**قال ابن كثير : يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه.**

**الابتلاء :** أن الله ﷻ يبتليهم على قدر إيمانهم، ليكشف للناس الصادق من الكاذب،

قَالَ تَعَالَى:﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ العنكبوت: ٢

قَالَ تَعَالَى:﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾

العنكبوت: ٣

**قال صاحب أضواء البيان رحمه الله: الناس لا يتركون دون فتنة، أي: ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا: أمنا فتنوا، أي: امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله: {آمنا} من غير الصادق.**

**التداول** : من سنن الله في المجتمع البشرى مُداوَلة الأيام، كما

قَالَ تَعَالَى:﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ آل عمران: ١٤٠

**قال السعدي رحمه الله: ومن الحِكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى.**

وكانت هذه السنة معلومة عند العرب، كما قال أبو سفيان يوم أحد عند الجبل: " يوم بيوم، والأيام دول، والحرب سجال"، وما أخذ المسلمون بأسباب النصر والتمكين إلا كانت لهم العاقبة .

## الصبر أو إمهال الظالمين:

فيمهلهم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يهملهم، **وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ( إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم:** (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ هود: ١٠٢

**قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم .**

## الفناء و الموت والهلاك الذي كتبه الله على الخلق:

وجعله حكما واقعا على كل حي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ الرحمن: ٢٦

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

الإسراء: ١٧

**قال السعدي رحمه الله: هؤلاء أمم كثيرة، أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن عاقبهم الله، لما كثر بغيهم واشتد كفرهم أنزل الله بهم عقابه العظيم**

وقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء: ٣٥

وهذه الآية فيها بيان أن الموت أمر قدره الله وكتبه على بني آدم، كان ذلك بالهلاك أو بغيره.

## قانون السببية أو القدر المحدد :

فإن بناء السفينة وصعود "مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ"، فهي أمرٌ طبيعي، ومقياس العقل يحتم علينا أن نعلم بأن ذلك الطوفان "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ" ليس من خارج السنن الكونية، وأن تلك السفينة مهما "ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ" أي معروفة في الحياة الطبيعية لتقاوم الغرق ، وأن "مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" لتستمر الحياة بعد أن ينتهي الطوفان، من الدواب التي كان

يعتاش منها الإنسان كي يستطيع إكمال حياته بعد أن غار الماء واستوت على الجودي. فقصة الطوفان هي مؤشر واضح على الاخذ بالأسباب والقوانين الطبيعية التي وضعها الله ﷻ في الأرض ، والمعنى الرمزي "مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ" يرمز إلى الحياة وسنن الكون في التكاثر والاستمرار والتي لا تتبدل حتى لو كان ذلك المهاجر إلى أرض جديدة رسولاً، إذ يجب عليه أن يخضع لسنن الحياة التي لا يمكن أن تستمر إلا بوجود زوجين من كل الأحياء!.

وقانون السببية هو الذي يفسر بأن الأشياء أو الأفعال مرتبطة بأسبابها وعللها، وجوداً وعدماً، فإذا وجدت الأسباب وجدت النتائج، وإذا تخلفت الأسباب تخلفت النتائج. فنجد سنة النصر –مثلاً–: الله ﷻ له سنة مطردة في نصر أوليائه، في نصر المؤمنين، إذا فعلوا ما أراد الله، فإذا انطبقت شروط النصر جاء النصر، هي متعلقة بأفعال البشر الاختيارية، هم يختاروا أن يحققوا شروط النصر أو لا يحققوا، إذا حققوا جاء، إذا ما حققوا تخلف.

فلا يمكن أن يضع الرحمة للمكذبين، ولا يمكن أن يضع العذاب للمؤمنين، فما في تبديل ولا تحويل، فلا تبديل للثواب بالعقاب، أو العقاب بالثواب، ولا يتحول عن مستحقه إلى غيره، ولا يهدد الله المحسن، ولا يؤمن المسيء.

## التَّدرُّج في التَّشريع الإسلاميّ مقرر بصورةٍ واضحةٍ ملموسةٍ:

وهذا من تيسير الإسلام على البشر؛ حيث إنَّه راعى معهم سنَّة التَّدرُّج فيما شرعه لهم إيجاباً، وتحريماً، فنجده حين فرض الفرائض؛ كالصَّلاة، والصِّيام، والزَّكاة فرضها على مراحل، ودرجاتٍ؛ حتَّى انتهت إلى الصُّورة الأخيرة الَّتي استقرَّت عليها.

«وهذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة في رعاية التَّدرُّج ينبغي أن تُتَّبع في سياسة النَّاس، وعندما يُراد تطبيق الإسلام في الحياة، واستئناف حياةٍ إسلاميَّةٍ متكاملةٍ؛ يكون التَّمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقيّاً؛ فلا نتوهَّم: أنَّ ذلك يمكن أن يتحقَّق بقرارٍ يصدر من رئيسٍ، أو ملكٍ، أو من مجلسٍ قياديٍّ، أو برلمانيٍّ، وإنَّما يتحقَّق ذلك بطريق التَّدرُّج؛ أي: بالإعداد، والتَّهيئة الفكريَّة، والنَّفسيَّة، والاجتماعيَّة. وذلك هو المنهج الَّذي سلطه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لتغيير الحياة الجاهليَّة إلى الحياة الإسلاميَّة، فقد ظلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة، كانت مهمَّته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدَّعوة، وتكاليف الجهاد؛ لحمايتها، ونشرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكِّيَّة مرحلة تشريعٍ بقدر ما كانت مرحلة تربيةٍ، وتكوينٍ»

## اول من يتبع الأنبياء الفقراء والمستضعفين في الأرض:

الضعفاء ليس عندهم شيء يمنعهم، بينما الأشراف وأصحاب الأموال تمنعهم رآساتهم ومآكلهم وشهواتهم من الاتباع، والضعفاء ليس عندهم مانع يمنعهم، فلذلك هم الأتباع، لكن الزعيم والرئيس والكبير وصاحب المال يمتنع، لأن الإسلام يقيده من شهواته ومعاصيه، وتكبره على الآخرين يمنعه ويقيده الإسلام، فلذلك يكون الضعفاء هم أول المستجيبين، والرسول عليه الصلاة والسلام تبعه من الأشراف ومن الأغنياء أبو بكر رضي الله عنه أول من آمن به.

## أهمية دراسة سنن الله:

1- التعرّف على سنن الله ﷻ واجب شرعيّ، وضرورة للإنسان، فإنّ اللهﷻ أمر في القرآن الكريم بالاتعاظ من سننه في الأقوام السابقة، وفي طبيعة هذا الكون.

2- تحليل الأحداث، وفهم التاريخ، وبذلك يستطيع الإنسان استشراف المستقبل، وتقييم الواقع، فأهل العلم يتعرفون على سنن الله في الكون لما يحقّق الاستقرار والرّخاء، ومعرفة التي تحكم حياة الأفراد والأمم والشعوب وفق المنهج الذي قرره العليم الخبير.

ومن يفهم التاريخ، فسيعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والبقاء والتمكين، وعوامل الهدم والخوف والتدمير و الاستبدال وهذه كلها محكومة بمعرفة سنن الله ﷻ.

3- تحقيق النصر والفلاح في الحياة؛ فأن عرفها أخذ بأسبابها، وعمل على تحقيقها ببصيرة.

4- الاعتبار أو القياس لأحداث سابقة حتى تعرف النتيجة وتبتعد عن الخطأ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ يوسف: ١١١

والقياس على ما سبق على وفق السنة والقانون، يخبرك بالنتيجة قبل وقوعها: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ الحشر: ٢

فمن فعل مثل فعلهم جوزي مثل جزائهم. وذلك تحذيراً وترغيباً، فإذا سلكوا سبيل عاد وثمود، وقوم شعيب وقوم لوط، ونحو ذلك، فإن السنة ستنطبق عليهم، فسيحصل لهؤلاء المتأخرين الذين يسيرون على وفق ما كان عليه أسلافهم، سيحصل لهم النتيجة نفسها.

## فوائد فهم السنن الإلهية والعلم بها ومعرفتها :

مما يستفاد من كون "السنة الإلهية" أنها عامة تصيب الجميع بغض النظر عن ايمانه او كفره، فأي مجتمع يخطئ وينحرف ويعرض عن شرع الله ﷻ، فيستحق العقوبة، حتى الصحابة في أحد "أهل الإيمان" لما تنازعوا وفشلوا، ومنهم من يريد الدنيا، تبع بعضهم الغنائم، حلت بهم الهزيمة، ووقعت بهم المصيبة، وعرفة هذه السنن ممكن أن تحقق جملة من الفوائد منها:

1- توضح معاني الشريعة: حتى يعرف الناس أحوالهم: لماذا حل بنا هذا؟ لماذا نحن على هذه الحال؟ كيف نغير الوضع الذي نحن عليه؟ ما هي الأشياء التي إذا أخذنا بها سيتغير هذا الحال؟.

2- تفسر لنا الواقع، تساعدنا على استشراف المستقبل. وتساعدنا على تغيير حالنا وواقعنا.

3- زيادة الإيمان: لأن موضوع "السنة الإلهية" مرتبط بالحكمة الإلهية: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [القمر: 49]. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا[الفرقان: 2].

4- يعرف الإنسان أنه يتعامل مع أشياء ذات مواصفات ثابتة، وجميعهم أمام قانون ثابت ، ومعرفة هذا القانون يحمي الفرد من الوقع بالغلط وبذلك يتجنب العقاب ،

5- تُشعر المؤمن بالعزة، والاطمئنان إلى تحقيق وعد الله؛ وتصبره، لأن ايمانه بقانون نهايات معينة ستأتي راسخ وكبير

6- تجنب مواطن الخطأ التي وقعت فيها الأمم السابقة

7- الاطلاع على عدل الله في خلقه فهى لا تفرق بين شخص وآخر، ولا بين أمة وأخرى.

8- عدم التسويف في التوبة تعلمنا سنن الله ﷻ عدم تسويف التوبة، وتأخير العودة إلى الله: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ[غافر: 85].

9- اختصار الطريق إلى النصر، اختصار الطريق إلى التمكين، اختصار الطريق إلى العزة والكرامة.

10- فيها اجر من خلال التفكر والاعتبار، لان فهمنا لها والتفكير بها من أعظم مجالات التفكر والاعتبار

:

## السنن الإلهية في القرآن

القرآن مليء بذكر "السنن الإلهية" سواء كانت في الكون، أو في الأفراد، أو في المجتمعات وكذلك طرق هؤلاء في اتباع ما جاءت به الرسل، و كيف اتبعوا الرسل، كيف آمنوا، كيف صدقوا، كيف جاهدوا، كيف نصحوا، قاموا بالأمر، فيه كيف كان أنصار عيسى –مثلاً–، كيف كان المؤمنون بموسى ، فيه وقائع لله –تعالى– التي أوقعها بالأمم السابقة ، وكذلك ما سيحصل لاحقاً.

**أنواع "السنن الإلهية؟"**

يمكن تقسيمها الى سنة خارقة، وسنة جارية عادية.

السنن الخارقة: التي يجريها الله ﷻ على خلاف المألوف؛ مثل تحويل العصا إلى حية في يد موسى نبع الماء من الصخرة عندما ضرب موسى بعصاه الحجر، لما فلق البحر بتلك العصى.

كما شق القمر نصفين لنبينا ﷺ. وكما حجب النار عن طبيعة الإحراق، كما في قصة النبي إبراهيم.

كما حصل للنبي يونس الذي عاش في بطن الحوت تحت طبقات الماء مدة من الزمن، ولم يمت، وهذا خلاف المعتاد، فتكون هذه السنن الخارقة في بعضها من جنس الكرامات والمعجزات.

السنن الجارية: فهي القوانين التي تحكم الدنيا، هناك سنن متعلقة بالأمور الكونية، وسنن متعلقة بالأفراد، وسنن متعلقة بالمجتمعات.

سنن الله في الكون مثل تعاقب الليل والنهار، هذه سنة مطردة. الشمس والقمر، وفق قانون محدد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ يس: 38 – 40

في خلق الإنسان، قال: وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ المؤمنون: ١٢ – ١٤

هذه الأطوار التي يمر بها خلق الإنسان، سنة جارية.

بالنسبة للسنن المتعلقة بالأفراد، أو المجتمعات؛ من مثل نصره لأوليائه، وعذابه لأعدائه، واستدراجه للظالمين، وإملائه للطغاة الكافرين الجبارين، ثم أخذهم في النهاية ثابته لا تتغير، وخضوع البشر لهذه السنن ثابت ومطرد في تصرفاتهم وأفعالهم: سعادة وشقاءً، عزاً وذلاً، غنى وفقرا، قوة وضعفا، وهكذا..

الفرق بين السنن الإلهية في الكون، والسنن الإلهية في النفس، أو في الأفراد والمجتمعات.

أن السنن الكونية، تقع بطريقة القهر والتنجيز الآني (الجبرية)، فتعاقب الليل والنهار لا يختلف إلى نهاية الدنيا، والسنن الإنسانية، فيها أخذ أُناس بسبب الظلم نتيجة لسبب .

فما الفرق بين تصرف فرعون وتصرف الشمس والقمر؟

تصرف الشمس والقمر يجري رغماً عنهما: أَتَيْنَا طَائِعِينَ [فصلت: 11].

وتصرف فرعون باختيار، بإرادة، برغبة ، لكن مصيره في النهاية هو مصير الجبابرة من قبله.

فالشمس والقمر، مسخرة ذليلة، هي تظهر، تختفي، وفق سنة إلهية، مقهورة ، وما يحدث في الأفراد، هو إرادة واختيار منهم، لكن المصير في النهاية يجري عليهم، تنطبق سنة الله فيهم رغماً عنهم.

السنن البشرية، مع اتسامها بالمرونة والاطراد، لا تختلف أيضاً من جهة النتيجة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بأمور الطبيعة، كسنته في الشمس والقمر، والكواكب، وغير ذلك من العادات.

يعني السنن الكونية– ينقضها إذا شاء بما شاء، كما حبس الشمس على "يوشع" في فتح بيت المقدس، وكما شق القمر لمحمد ﷺ، وكما أحيا الموتى لعيسى، وكما جعل العصا حية، وكما أنبع الماء من الصخرة، ومن أصابع محمد ﷺ" ، فهذه السنن التي في الكون، تنخرق إذا أراد الله ، فهي مسخرة بأمره، فإذا أراد الله أن تقف الشمس وتشرق من المغرب في آخر الزمان، أشرقت من المغرب.

السنن المتعلقة بوعده ووعيده، وأمره ونهيه، في الأفراد والمجتمعات، لا تتخلف.

السنن التي في الأفراد فيها حرية للفرد، والأفراد لهم إرادة سنن الله فيهم متعلقة بأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وما ابتلاهم به من الشرع الذي أنزله لينظر كيف يعملون..

السنن في المجتمعات، في البلد متعلقة بإرادة هؤلاء، وعمل هؤلاء، وحركتهم ، يعني الله لا يهلك:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ هود: ١١٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ الطلاق: ٨ – ٩

## فقه النبي صلى الله عليه وسلم في التَّعامل مع سنن الله علي الصلابي

التأمُّل في سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم نراه قد تعامل مع السنن، والقوانين بحكمةٍ، وقدرةٍ فائقةٍ. إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة، هي أحكام الله تعالى الثَّابتة في الكون على الإنسان في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، وهي كثيرةٌ جداً، والَّذي يهمُّنا منها هو ما يتعلَّق بحركة النُّهوض تعلُّقاً وثيقاً. «ولقد شاء الله ربُّ العالمين أن تجري أمر هذا الكون على السُّنن الجارية، لا على السُّنن الخارقة، وذلك حتَّى لا يأتي جيلٌ من أجيال المسلمين، فيتقاعس، ويقول: لقد نُصِر الأوَّلون بالخوارق، ولم تَعُد الخوارق تنزل بعد ختم الرِّسالة، وانقطاع النُّبوَّات».

والقرآن الكريم حينما يوجِّه أنظار المسلمين إلى سُنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول الَّتي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنَّواميس الَّتي تحكم الكون، والشعوب، والأمم، والدُّول، والأفراد جاريةٌ لا تتخلَّف، والأمور لا تمضي جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ وإنَّما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السُّنن، وأدركوا مغازيها؛ تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيَّنت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنُّوا إلى ثبات النِّظام الَّذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النِّظام، واستشرفوا خطَّ السَّير على ضوء ما كان في ماضي الطَّريق، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين؛ لينالوا النَّصر، والتَّمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدِّية إليه.

«والسُّنن الَّتي تحكم الحياة واحدةٌ؛ فما وقع منها من زمانٍ مضى سيقع في كلِّ زمان».

وهذه السُّنن هي الَّتي يُجْرِي الله – تعالى – عليها فَلَكَ الحياة، ويُسيِّرُ عليها حركتها، فليس هناك شيءٌ واحدٌ في حياة البشر تحدث اعتباطاً، وإنَّما تجري كلُّ شيءٍ في هذه الحياة حسب سُنن الله تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل، ولا تتخلَّف، ولا تحابي أحداً من الخلق، ولا تستجيب لأهواء البشر.

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربِّهم المبرزة لهم في كتاب الله، وفي سنة رسول صلى الله عليه وسلم، حتَّى يصلوا إلى ما يرجون من عزَّةٍ وتمكينٍ؛ «فإنَّ التَّمكين لا يأتي عفواً، ولا ينزل اعتباطاً، ولا تخبط خبط عشواء، بل إنَّ له قوانينه الَّتي سجَّلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة».

إنّ أوّل شروط التعامل المنهجيّ السليم مع السُنن الإلهيّة، والقوانين الكونيّة في الأفراد، والمجتمعات، والأمم، هو أن نفهم، بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُنن، وكيف تعمل ضمن النّاموس الإلهيّ، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السُنن»، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعيّة، والمعادلات الحضاريّة.

إنّ حركة الإسلام الأولى؛ الّتي قادها النّبيُ صلى الله عليه وسلم في تنظيم جهود الدّعوة، وإقامة الدّولة، وصناعة الإنسان النموذجيّ الرّبانيّ الحضاريّ خضعت لسنن، وقوانين قد ذكر بعضها بنوعٍ من الإيجاز؛ كأهمّيّة القيادة في صناعة الحضارات، وأهمّيّة الجماعة المؤمنة المنظّمة في مقاومة الباطل، وأهمّيّة المنهج الّذي تستمدُ منه العقائد، والأخلاق، والعبادات، والقيم، والتّصوُرات.

ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنّة التّدرُج، وهي من سنن الله تعالى في خلقه، وكونه، وهي من السُنن المهمّة الّتي يجب على الأمّة أن تراعيها، وهي تعمل للنُهوض، والتّمكين لدين الله عزّ وجلّ. ومنطلق هذه السُنّة: أنّ الطّريق طويلٌ – لا سيّما في هذا العصر الّذي سيطرت فيه الجاهليّة، وأخذت أُهبَتها، واستعدادها – كما أنّ الشرّ، والفساد قد تجذّر في الشُعوب، واستئصاله يحتاج إلى تدرُج.

بدأت الدّعوة الإسلاميّة الأولى متدرجةً، تسير بالنّاس سيراً دقيقاً، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء، والتّأسيس، ثمّ مرحلة المواجهة والمقاومة، ثمّ مرحلة النّصر والتّمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقتٍ واحدٍ، وإلا كانت المشقّة، والعجز، وما كان يمكن كذلك أن تتقدم واحدةٌ منها على الأخرى، وإلا كان الخلل، والإرباك. إنّ اعتبار هذه السُنّة في غاية الأهمّيّة؛ «ذلك أنّ بعض العاملين في حقل الدّعوة الإسلاميّة يحسبون أنّ التّمكين يمكن أن يتحقّق بين عشيةٍ وضحاها، ويريدون أن يغيّروا الواقع الّذي تحياه الأمّة الإسلاميّة في طرفة عينٍ، دون النّظر في العواقب، ودون فهمٍ للظُروف، والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعدادٍ جيّدٍ للمقدّمات، أو للأساليب، والوسائل»، وقد وجّه الله تعالى أنظارنا إلى هذه السُنّة في أكثر من موقع، فالله – تعالى – خلق السّموات والأرض في ستّة أيام، يعلمها سبحانه، ويعلم مقدارها، وكان – جلّ شأنُه – قادراً على خلقها في أقلّ من لمح البصر، وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان، والحيوان، والنّبات، كلُها تتدرّج في مراحل حتّى تبلغ نماءها، وكمالها، ونضجها، وفق سنّة الله – تعالى – الحكيمة.

## ملحق آيات تدل على القانون أو السنن حتى وضعها الله ﷻ

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧ ﴾ الطلاق: ٧

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ ﴾ القمر: ٤٩

حتى إذا تعلق الموضوع بقتال الكفار الذين امر الله بقتالهم أمر بالاستعداد لقتالهم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ﴾ الأنفال: ٦٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ ﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥ ﴾ الكهف: ٨٥

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ ﴾ الأنبياء: ٢٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ ﴾ الروم: ٤١

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ ﴾ الأحزاب: ٦٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ ﴾ ص: ١٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ الشورى: ٣٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ ﴾ العنكبوت: ٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ ﴾ المؤمنون: ١١٥

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ ﴾ هود: ١٩

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٦

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ النساء: ٧٤

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ النساء: ١٠٠

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنفال: ٣٨

قَالَ تَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء: ٧٧

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ فاطر: ٤٣

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر: ٨٥

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٢

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنعام: ١٨

**في نهاية المقالة**

**ارجو من الله ﷻ أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم وما قصدت إلا الفائدة لأهلي الكرام .**

**وأنا اجد أن هذا الموضوع قد أعطانا فرصة لاكتشاف وجهات نظر جديدة، يجب الاستفادة منها ومن تجاربنا، ويظل هذا الموضوع نقطة انطلاق للتفكير العميق والنقاش الجميل حول سنن الله في الكون إن ما تعلمناه من هذا النقاش وما تبيعه من بحث وتقصي بالموضوع كان له تأثيرًا إيجابيًا في علاقتنا وبناء منظومة فكرية متجانسة بالمستقبل إن شاء الله**

**(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك)**

**والحمد لله رب العالمين**

**محمد اللكود**

**2023/11/1**

**المراجع**


- **من سنن الله في القرآن اسم الكاتب: إسلام ويب تاريخ النشر:2019/07/14 التصنيف :العقيدة الإسلامية**
- **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.. بين الآية وقصص القرآن! طارق مفيد المبيض** 5/8/2018
- **تعريف واصطلاحات حول سنن الله في الكون مقالة**
- **مقالة : سنن الله في الكون تمت الكتابة بواسطة: Layal Ahmed**
- **٨ مارس ٢٠٢١ ذات صلة سر الله تعالى في خلقه الكون مقالة حول مظاهر عظمة الخالق في الكون:**